بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الكلمة الشاعرة حاضر وتاريخ، وهى فى حضورها تصل الشاعر بعصره؛ ومن ثم هى علاقة من نوع خاص بين الفرد والجماعة، وبين الفرد والواقع، ولكنها فى تاريخها تصل جمهرة المبدعين والمتذوقين بالوجدان الثقافى للأمة، ومن ثم هى علاقة بين الجماعة وتراثها، وبين الجماعة ووجودها الحضارى الممتد عبر مئات السنين.

والكلمة الشاعرة من هذا المنظور التاريخى ليست واقعة محدودة تنتهى بانتهاء عصرها، وليست وديعة من ودائع الماضى نقنع من تناولها بما يقنع به هواة الآثار أو رواد المتاحف، وإنما هى قيمة تنبض بالحياة والاستمرار، وهى حوار دائم بين الأجيال والأزمنة على تعاقبها، كل جيل يأخذ منها ويعطيها ويتلقاها بوعى من عنده، وبإدراك جمالى تمليه طبيعة الحقبة التى يعيشها، ثم برؤية فكرية توحى بها وتنسج خيوطها هموم البيئة التى ينتمى إليها. وفى ظل هذا التفاعل الفنى الخلاق بين الكلمة والمتلقى، بين الباقى والمتغير، بين التراث والمعاصرة، تصبح للماضى قوة التأثير فى الحاضر، لأنه يرفده بمذخور تقاليده ونماذجه العليا، كما تغدو للحاضر شرعية التأثير فى الماضى، لأنه يفسره ويضيف إليه ويعيد اكتشاف روائعه، وذلك - على التحقيق - هو مفهوم الحس التاريخى الذى ينبغى أن يتزود به الشاعر، والذى يتضمن إدراك مضى الماضى بقدر ما يتضمن إدراك حضوره، فهو حس بالزمن، وبما وراء الزمن، وبهما معًا متحدين[1].

من هذا المنطلق تمثل دراسة تراثنا الشعرى القديم ضرورة تاريخية وفنية لا يمكن نكرانها أو الارتياب فيها، ويتضاعف إحساسنا بهذه الضرورة التراثية إذا تذكرنا ما هو معروف من أن الحياة الوجدانية لأسلافنا لم ترتبط بفن من الفنون قدر ما ارتبطت بالشعر، ففى بيئة شحيحة العطاء، قليلة الزاد، متواضعة المطالب والموارد، كتلك التى عاشها الإنسان العربى القديم، تعظم الحاجة إلى متنفس فنى ينفق فيه الفرد والجماعة مذخور نشاطهما المعنوى والروحى، ويكون فى نفس الوقت مما يستطيعان ممارسته دون عبء مادى يرهق الكاهل أو تضيق به اليد، وليس كالشعر نافذة يلج عبرها الوجدان إلى متعة شعورية لا تنفد ولا تنتهى، متعة مجانية - إذا صح التعبير - فيها ما فى طبيعة إنسان ذلك الزمن من بداوة وبساطة وفطرية.

---

(١) لمزيد من التفصيل عن العلاقة بين التراث والمعاصرة يراجع كتاب المؤلف: الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر - الطبعة الأولى - دارالمعارف سنة١٩٧٧م- ص٣٢٢ وما بعدها.

أضف إلى ذلك أن الشعر الأموى بالذات - وهو قضية هذا الكتاب - يقع بين نهرين أدبيين شديدى العمق والتدفق والجيشان، فمن قبله العصر الجاهلى بكل ما يمثله من غزارة البداية ووفرة العطاء وكثافة الاهتمام بفن القول وأربابه، حيث لم يكن هذا الفن ترفا كماليًا، ولم يكن ضربًا من ضروب الرفاهية الوجدانية، وإنما كان فى جوهره ضرورة من ضرورات الحياة، وكان حقيقة من حقائق الوجود الفردى والجماعى، كان - فى عبارة واحدة يرويها ابن سلام - «علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»[1]. ثم خلفه ومن بعده العصر العباسى بكل ما يمثله من اكتمال النهج الفنى، واستحصاد عود الثقافة العربية الإسلامية، وتطور الوجدان المبدع من الفطرة إلى الصنعة، ومن البساطة إلى التركيب، وما ترتب على ذلك من تشعب فنون الشعر وتعدد روافده الفكرية والجمالية.

وكان موقع الشعر الأموى بين هذين النهرين الزاخرين أشبه شىء بموقع الابن الأوسط بين إخوته، لا هو بالأول فيحظى بوحدة العناية وتفرد الاهتمام، ولا هو بالأخير فيبقى له من فيض الحرص والرعاية ما يبقى للفروع حين توشك أصولها على التمام. ورغم بساطة هذا التشبيه - ونكاد نقول رغم سذاجته - فإنه يشى بحجم الجهد المبذول فى التوفر على هذا الشعر ومعالجته، كما يومىء إلى قلة الدراسات التى اتجهت صوب هذا الشعر وقضاياه، وبعض هذا القليل يرد على عجل فى ثنايا دراسة الشعر القديم ككل، وبعضه يأتى ضمن رصد حركة الأدب الأموى فى شمولها واتساعها، وفى الحالتين قد تعيننا رحابة الصورة على المقارنة بين الشعر فى العصر الأموى وغيره من الأجناس والعصور الأدبية، وقد تسعفنا هذه المقارنة فى التعرف على مزاج هذا العصر ومحاور اهتمامه الفنى، بيد أنها تظل - بعد - بحاجة إلى صورة أخرى ترصد هذا الشعر باعتباره جنسًا خاصا من أجناس القول، له مقوماته، وله قضاياه؛ وله منهجه فى البناء والتركيب، وبها جميعًا يختلف عما سواه من الأجناس الأدبية..

وصحيح أن مكتبة الدراسات الأموية لم تخل من بعض الجهود الصادقة فى هذا الجانب الأخير، وخاصة ما يتعلق منه بعنصرى التجديد والجمود فى الشعر الأموى، غير أن هذه الجهود - مع أصالة التناول وغزارة المادة - كانت قمينة باختلاف النتائج حيث اختلفت بها زوايا الرؤية، فشطر منها نظر إلى هذا الشعر مقارنا بسابقه فى العصر الجاهلى، فوجد فى الإبداع الأموى تكثيفًا شديدًا فى شعر المديح، وتحديثا فى طرائق الغزل ونماذجه، ووفرة من قصائد الهجاء تعقدت ألوانها وخيوطها حتى صارت نقائض، فكان منطقيا إزاء هذه المقدمات أن تكون النتيجة فى عمومها تقريرا لجدة هذا الشعر الذى يمثل تطور الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية فى العصر الأموى أصدق تمثيل.

---

(١) طبقات الشعراء - طبعة مطبعة السعادة - ص١٧.

وشطر آخر نظر إلى الشعر الأموى فى ضوء لاحقه فى العصر العباسى، فوجد ذلك الأخير وقد اكتملت فيه شخصية الثقافة الإسلامية، ووجده وقد تعددت فى مجراه روافد المؤثرات الحضارية الأجنبية، وهو فى تياره الدافق يتلقف كل هذه الروافد ويتمثلها ويعيد صياغتها شعرا وفنا ومعرفة كانت لحينها منارة العقل الإنسانى، ومن ثم كانت النتيجة فى عمومها حكما بأن التجديد الحق ينبغى أن يلتمس فى كنف الشعر العباسى وتحت أجنحة شعرائه، أما الشعر الأموى فقد جمد عند مواضعات السلف فى العصر الجاهلى لا يتحول ولا يريم، وحتى تلك التطورات اليسيرة التى طرأت عليه لا تمثل سوى هوامش هينة الأثر، ولا تغير كثيرًا من أوضاع الصورة الكبرى لخريطة الشعر الأموى.

والحق أن معالجة القضية على هذا النحو كفيلة بألا تفضى إلى غير ذينك الاحتمالين، أى أننا لو جعلنا محور التساؤل على الوجه التالى: هل اختلفت طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية فى العصر الأموى عنها فى العصر الجاهلى؟ وأليس ضروريًا أن تتغير طبيعة الشعر تبعًا لذلك؟ لكان منطقيا أن يقودنا هذا النحو من التساؤل إلى واحد من الاختيارين المطروحين لا محالة، ولكن هب أننا تحركنا من هذا النطاق قليلا وأعدنا صياغة القضية على هذا الوضع: أى وجوه الحياة فى العصر الأموى قد تغير وأيها ظل باقيًا؟ وما طبيعة هذا الذى بقى أو تغير وما حدوده وما بواعثه؟ وألم يكن هذا الباقى من قيم الموروث الجاهلى جديرًا بأن يترك آثاره فى تقاليد الشعر الأموى وأبنيته؟ ثم ألم يكن ذلك المتغير حريًا أن يترك ظلاله على أغراض هذا الشعر وفلسفته وأفكاره، أيا كان نصيب هذه الظلال من العمق والكثافة والاتساع؟!.

حينئذ سوف نتبين أن هذا الشعر الأموى لم يكن بالنسبة للموروث الجاهلى جديدا جدة مطلقة، وكيف ذلك وقد ظل بناء القصيدة وموسيقاها وكثرة خصائصها التصويرية دائرة فى إطار ما عرفه ذلك الموروث؟ كذلك لم يبق هذا الشعر أسير خطوات السلف لا ينحرف عنها ولا يحيد، وكيف يتاح ذلك ودفق الحياة لا يتوقف، والشاعر الفرد والجماعة البشرية يخوضان مستحدثًا من ألوان العيش وأنماط السلوك وصور العلاقة الاجتماعية، وجميعها عناصر إن لم تغير بنية الشعر فإنها خليقة بالتأثير فى رؤى الشاعر ومواقفه ومقوماته الذهنية؟.

من ذلك المدخل تحاول هذه الدراسة أن تلج عالم الشعر الأموى، وهى تتوسل إلى ذلك بتوطئة عن مناهج النظر فى هذا الشعر وقضاياه، يعقبها مبحث فى المجتمع الأموى وثقافة عصره، عرضنا فى مستهله لمستوى الشعر فى صدر الإسلام والأسباب الموضوعية التى تحكمت فى مساره، وعطفنا على ذلك بنظرة فى المكونات السياسية والقبلية للمجتمع الأموى، أردفناها بمناقشة بعض مؤثرات الثقافة الأجنبية ومدى إسهامها فى تشكيل الخلفية الفكرية والوجدانية لشاعر ذلك العصر.

أما الفصل الثالث فقد خلص لمعالجة البناء الفنى فى القصيدة الأموية، تعقبنا فيه نظرية هذا البناء فيما أسماه القدماء بعمود الشعر، ثم قارنا بين الصورة النموذجية لهذا البناء ممثلة فى القصيدة الجاهلية، وصورتها التقليدية كما تجلت فى القصيدة الأموية، وقد أفضت بنا هذه المقارنة التطبيقية إلى الزعم بأن القصيدة الأموية ظلت محافظة على وجه العموم فيما يتعلق بالبناء الفنى ووجوه الصياغة، وإن ظهرت هنا أو هناك بعض أصداء القيم الدينية والاجتماعية الجديدة، وخاصة فى تلك الحالات التى تستمد عناصر التصوير الشعرى من شعائر العبادة أو من المعجم القرآنى.

أما فنون الشعر - أو أغراضه - فقد أفردنا لها الفصول الخمسة التالية من الكتاب، فطرحنا فى الفصل الرابع إشكالية قصيدة المدح بين التقليد والأصالة، وفى الفصل الخامس قضية الشعر السياسى وتجلياتها فى شعر الأحزاب السياسية المختلفة، كالشيعة والأمويين والزبيريين والخوارج، أما الفصل السادس فقد جعلناه للنقائض الأموية وخصائصها وبواعثها ودلالتيها القبلية والتاريخية، على حين اختص الفصلان السابع والثامن بالشعر العاطفى فى وجهيه الحضرى والعذرى، بكل ما صحب هذين الوجهين من تجديدات فى الصياغة وابتكارات فى الأداء، ثم كان المبحث الأخير فيما دعوناه بالروافد المستحدثة فى نهر الشعر الأموى، كشعر التحكيم النقدى، وبكاء الماضى القبلى، وشعر الصحراء عند ذى الرمة.

أما سر التركيز على تلك الفنون الشعرية بخاصة، فيفسره أن تلك الفنون بالذات قد استحدث بعضها تماما نتيجة لتطورات نوعية فى بنية المجتمع الإسلامى، وبعضها تعرض لنوع من التغير، بحيث يظهر البون فيه واضحا بين النموذج الجاهلى والنموذج الأموى، وقد وصلنا عبر دروب عديدة من الملاحظة والتحليل إلى أن هذه المفارقة بين ثبات البناء الفنى وتطور الأنواع أو الفنون الشعرية هى مفارقة مفهومة فى ضوء ما هو معروف من أن التجديد فى المعمار الفنى ووجوه الصياغة يكون عادة أصعب بكثير من التجديد فى فلسفة العمل الأدبى ومضامينه وقيمه الفكرية، ومن ثم كانت الخطوة الأولى فى ازدهار الآداب تتم بدءا من تجديد المضمون، الذى يقتضى بالضرورة جدة الصيغة الفنية.

والكتاب - بعد - ليس سوى محاولة فى التراث، وخطوة فى سلسلة الخطوات المبذولة على دربه، والأمل ألّا تفوتها دقة القصد وسداد الجهد، وليس عليهما سوى الله من مستعان.

العجوزة - يوليو ١٩٩٠ م

محمد فتوح أحمد